قضية اللفظ والمعنى في منظور النقد العربي القديم

شكلت هذه القضية واحدة من اكبر القضايا التي انشغل بها النقد والعلماء القدماء بعد قضية القديم والمحدث، وهما ركنان مهمان من اركان القصيدة، لا ينفصلان في المنظور المعاصر، وقد احتلت هذه القضية حيزا واسعا من اقسام عمود الشعر القديم الذي قامت عليه القصيدة العربية وهي شرف المعنى وصحته ، جزالة اللفظ، مشاكلة اللفظ للمعنى.

وقد ميز الباحثون اتجاهات متعددة للنقاد في سياق هذه القضية نوجزها بالآتي:

- اتجاه لا يركز على المعنى لكنه لا يهتم باللفظ وحده:

ويعد الجاحظ اول من اشعل شرارة الجدل في هذه القضية حين قال مقولته الشهيرة(المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني، وانما الشأن في اقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك فإن الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير...) الحيوان:١٣١/٣.

فهو لا يكتفي باللفظ وانما يضيف اليه امورا اخرى تخص الصورة والبناء والتركيب والطبع وغيرها، وقدم الوزن على اللفظ باعتبار عنايته بالعنصر الموسيقي في الاشعار.

ولعل الأمرَ يزداد وضوحًا مع ما ذكره هو نفسُه في البيان والتبيين: "مَنْ أرادَ معنًى كريمًا فليلتمسْ له لفظًا كريمًا، فإن حقَّ المعنى الشريف اللفظُ الشريف"

وبناءً على ما سبق، فإن الجاحظ لم ينتصِر للفظ على حساب المعنى أو للمعنى على حساب اللفظ، بل ذهب إلى ما سماه بالمشاكلة والمطابقة بينهما.

ولم يفهم الكثير من الناس مغزى قول الجاحظ حين اكتفوا باول العبارة(المعاني مطروحة في الطريق) ففهموا منه ايثار اللفظ على المعنى فقد قال ابن رشيق معقبا: اكثر الناس على تفضيل اللفظ على المعنى، واعظم قيمة واعز مطلبا فان المعاني موجودة في طباع الناس، وقال ابن خلدون اعلم ان صناعة الكلام نظما ونثرا انما هي في الالفاظ لا المعاني.(العمدة١٢٧/١، المقدمة ٤/ ١٣٠٢)

- اتجاه عمد الى الاهتمام التام بين اللفظ والمعنى:

يتقدمه قدامة بن جعفر الذي لم يقصر الجودة على ركن دون غيره بل رآها مؤتلفة مترابطة ، يقول: "ولما كان لكل واحد من هذه الثمانية(اللفظ والمعنى والوزن والقافية وصور ائتلافهما معا)صفات يمدح بها واحوال يعاب من اجلها وجب ان يكون جيد ذلك ورديئه لاحقين للشعر، فهو يولي الجودة جل الاهتمام ".(نقد الشعر /٢٢)وصور الائتلاف هي:

١- ائتلاف اللفظ والمعنى
٢- ائتلاف اللفظ والوزن

٣- ائتلاف المعنى والوزن
٤- ائتلاف المعنى والقافية

ومن علماء هذا القسم الآمدي الذي ركز على صحة المعنى وصحة التأليف معا ،ويجعل الباقلاني اللفظ جزء من النظم يتبع المعنى ويسير في ركابه.

واما حازم القرطاجني فلم يتعصب لأصحاب اللّفظ ولا المعنى وإنّما أكّد على أهمّية (التناسب) بين أركان العمل الشعري من حيث اللفظ والمعنى . . وذللك لإحداث التأثير المطلوب في المتلقي، وهذا ما عرف قبله بمراعاة حال المخاطب عند البلاغيين.

ومن أهمّ ما جاء به هو((تأكيدُه على فكرة التناسب المبدئي، بكون القصيدة تركيبًا متناسبًا من مستويات متنوّعة، ترتد إلى معانٍ وأساليب مصوغةٍ في ألفاظ تتلاحم في نظام جامع لشتات مركب من أغراض)

وهذا التناسب برأيه يحقق التوازن في العمل الادبي ويرسخ النظرة الى اهمية كل عنصر في بناء النص، وناقش القرطاجني التخييل وعناصر بناء الصورة التي شكلت اهم عناصر نقده ،وكان ادراكه لقيمة التناسب اللفظي مع المعنى اثر في الخروج من كلاسيكية النظرة الى هذه القضية.

يقول : (واعلم أنَّ النسبَ الفائقة إذا وقعتْ بَينَ هذه المعاني المتصالبة بأنفسِها على الصورةِ المختارةِ...، كان ذلك من أحسن ما يقع في الشعر)

ويرى ابن رشيق ان اللفظ جسم روحه المعنى يضعف بضعفه ويقوى بقوته واذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصا للشعر وهجنة عليه، مثلما يحصل في العاهات التي تصيب الجسم من غير ان تذهب الروح،.

واهم من مثل هذا الاتجاه عبد القاهر الجرجاني الذي عالج القضية في اطار نظرية النظم، "وامر النظم في انه ليس شيئا غير توخي معاني النحو فيما بين الكلم، وانك ترتب المعاني اولا في نفسك، ثم تحدد على ترتيبها الألفاظ"، ويرى ان الالفاظ المفردة مهما اوتيت من فليست مقصودة لذاتها،، ولا يكاد يبين عنده اي ترجيح للفظ دون المعنى، فنظريته تقوم على التآزر التام بين اللفظ والمعنى ولا قيمة لاحدهما دون الاخر.

ثالثا- اتجاه ينتصر للمعنى ولا يسقط الالفاظ من حسابه:

فابن شرف القيرواني يقول المعاني هي الارواح والالفاظ هي الاشباح ، وابن الاثير يقول: "فان رأيت العرب قد اصلحوا الفاظهم وحسنوها ورققوا حواشيها وصقلوا اطرافها فلا تظن ان العناية إذ ذاك انما هي بألفاظ فقط، فلو جردت الالفاظ من معانيها لما تفاضلت، ويرى ان المعنى هو عماد اللفظ واللفظ هو زينة المعنى، والمعاني بمنزلة الارواح والالفاظ بمنزلة الاجساد".

رابعا: اتجاه يناصر كل ما سبق من ايثار للفظ والمعنى:

يمثله العسكري الذي مثل شمولية النظرة الى هذه القضية، فهو يناصر الجاحظ بقوله السابق : "لان المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي وانما هو في جودة اللفظ وصفائه، وحسنه وبهائه ، ونزاهته ونقائه وكثرة طلاوته ومائه مع صحة السبك والتركيب والخلو من أود النظم والتأليف..."

وفي موضع اخر يقول : "ان الكلام الفاظ تشتمل على معان تدل عليها ويعبر عنها، فيحتاج صاحب البلاغة الى اصابة المعنى، كحاجته الى تحسين اللفظ لان المدار بعد على اصابة المعنى".

خامسا: اتجاه يفصل بين اللفظ والمعنى فصلا تاما بلا ترجيح:

يمثله ابن قتيبة الذي قسم الشعر الى اربعة اضرب:

- ضرب حسن لفظه وجاد معناه
- ضرب حسن لفظه وجاد فان فتشته لم تجد فائدة في المعنى
- ضرب جاد معناه وقصرت الفاظه
- ضرب تأخر معناه وتأخر لفظه

فلا ترجيح لركن على اخر، وفي الحقيقة ان جميع هذه الاتجاهات خضعت لمعايير ما يسمى عمود الشعر الذي دارت حوله القضايا النقدية المتعلقة بالشعر .

ويبدو ابن طباطبا صاحب اوضح رؤية الى هذه القضية، فهو يرى ان معيار جودة الاشعار المحكمة الانيقة الالفاظ العجيبة التأليف هو حفاظها على جودة معانيها عند جعلها نثرا، وميز انواعا من الشعر لا وفقا لمجمل القصيدة، بل على مستوى البيت المفرد، الذي يؤكد انه الوحدة البنائية المهمة التي قد ترفع القصيدة وقد تهوي بها ،وافرد انواعها بالاتي:

- ابيات حسنة الالفاظ واهية المعاني
- ابيات حسنة المعاني واهية الالفاظ
- ابيات حسنة الالفاظ والمعاني

وقد احتل اللفظُ والمعنى عند نقَّاد عمودِ الشعر مكانةً رئيسة؛ حيث نجدهما على رأس أبواب عمود الشعر السبعة عند المرزوقي (ت٤٢١)، الذي كان آخرَ حلقةٍ في تطورِ هذه القواعد، ومعه استوت على سوقِها، حيثُ ذكر:

- شرف المعنى وصحته.
- جزالة اللفظ واستقامته.
- الإصابة في الوصفِ.

•المقاربة في التشبِيه.

•التحام أجزاءِ النظم والتئامها على تخيرٍ من لذيذِ الوزنِ.

•مناسبة المستعار منه للمستعار له.

•مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا تكون منافرة بينهما.]

وقد ذكر عيارَ كلِّ واحدٍ منهما - أي عيار اللفظ وعيار المعنى - فقال: "فعيارُ المعنى أن يُعرَضَ على العقل الصحيح، والفهم الثاقب، فإذا انعطف عليه جَنبتا القبولِ والاصطفاء، مُستأنِسًا بِقَرَائنه، خرج وافيًا، وإلا انتقض بمقدار شَوْبِهِ ووحْشَتِهِ."

وقال في اللفظ: "وعيار اللفظ الطبعُ والرّوايةُ والاستعمالُ، فما سلِم ممَّا يُهجنهُ عند العرضِ عليها، فهو المختارُ المستقيم..."

وهناك امور لابد من تثبيتها في سياق التقصي لهذه القضية:

١- لا تختص قضية اللفظ والمعنى بالأدب العربي وحده بل ظلت مدار جدل وبحث في جميع الآداب العالمية قديمها وحديثها.
٢- لا يمكن التسليم بوجود صراع افترضه المحدثون عند العلماء القدماء في هذه القضية، فلا عنصرية ولا امور اعتقادية مهمة بل وجهات نظر علماء اللغة والادب على نحو ما يؤل ذلك شوقي ضيف وشكري عياد وبدوي طبانة وغيرهم من النقاد العرب.
٣- ارتبطت القضية بمباحث الاعجاز القرآني ارتباطا وثيقا، وكان لدراسات الاعجاز ابلغ الاثر في تعميق جوانب هذه القضية الى جانب مباحث الفصاحة والبلاغة .
٤- ان النقاد العرب القدماء لم يفصلوا بين الالفاظ والمعاني فصلا تاما بل جسدوا العلاقة بينهما تجسيدا يتلائم مع زاوية النظر اليها، فالكلاميون واصحاب المذاهب العقلية ركزوا على جوانب المجاز الذي يعد روح العلاقة بين اللفظ والمعنى.
٥- تطورت قضية اللفظ والمعنى لتفضي الى موضوع الصورة الشعرية التي جسدت خلاصة الفكر النقدي العربي عند حازم القرطاجني.
٦- شكلت النظرة التجزيئية عماد الفكر النقدي العربي في مراحله الاولى، ومنها النظر الى قضية اللفظ والمعنى، فكان الحكم على دور المفردة في البيت الواحد سائدا ولم تتعرض الآراء الى موضوع وحدة القصيدة الا في وقت متأخر.

المصادر:

- البيان والتبيين /الجاحظ
- الشعر والشعراء ابن قتيبة
- نقد الشعر /قدامة بن جعفر
- العمدة/ ابن رشيق القيرواني
- مقدمة ابن خلدون
- دلائل الاعجاز/ عبد القاهر الجرجاني
- شرح ديوان الحماسة/ المرزوقي
- عيار الشعر/ ابن طباطبا.
- منهاج البلغاء / حازم القرطاجني.
- مقالات في تاريخ النقد العربي القديم/ داود سلوم
- بناء القصيدة في ضوء النقد العربي القديم/د. يوسف حسين بكار